مكتبة

رواية عصي الدمع لمنهل السرّاج

بعد روايتها الأولى «كما ينبغي لنهر» التي أرستها كاتبة بحق تكتب منهل السراج الروائية السورية روايتها الثانية «عصي الدم» (دار الآداب، ٢٠١٢) بالدم. إذا افتتحنا المراجعة بالقول إن الرواية تقدم مصائر أفراد عائلة ممتدة سنكون كمن يصف الماء بالماء، فالرواية عليها دائما أن تقدم مصائر، ترسمها وتطاردها، وتكشف أسرارها ومفارقاتها، حتى توصلها إلى نقطة ما تسمى النهاية، والتي قد تكون بداية في مكان آخر.

لكن إذا أضفنا أن «عصى الدم» ترسم مصائر عائلة عاشت في مدينة حماة السورية في عقد الثمانينيات فلابد للماء أن يكتسب وصفاً مغايراً. لم تمح مطلقا أحداث مدينة حماة في العام ١٩٨٢ من ذاكرة القارئ العربي، ناهيك عن المواطن السوري ـ والحموي ـ الذي يستعيد ذاكرة الأحداث، مرة أخرى هذه الأيام، مهما تكن توجهاته الأيديولوجية.

تشكل عائلة فؤاد العصب الرئيس للرواية وكأن العائلة هنا هي نواة النص، حتى أن مصائر أفراد العائلة ومساراتها تشكل دلالات أحداث حماة كما تدل على نفسها في آن. وقد تمكنت الكاتبة من تحويل هذه المصائر إلى دلالات متشابكة لكبر حجم هذه العائلة، فهي مكونة من الأب فؤاد والأم سعاد، ثم خمس بنات: فداء وسمر وبشرى ولينا وغادة، وثلاثة أولاد: أيمن ومخلص وربيع.

وإذا كان النص يبدأ بغادة– أصغر البنات– في حماة وهي تجتر كراهيتها للمدرسة، فإنه ينتهي بفداء– أكبر البنات– في ستوكهولم، وهي تقول لابنها الصغير «نحن من سوريا، وبيتنا في سوريا». ما بين البداية والنهاية يشكل كل فرد في العائلة حياته طبقا لمسار سياسي– وبالتالي اجتماعي– فرض على أهل حماة، وطبقا لردة فعله النفسية تجاهها، بالإضافة إلى تصوراته عن العالم.

كأي مدينة تقع تحت اضطهاد السلطة تنقسم حماة إلى أهل حماة، وهم الأغلبية،

وطبقة المسؤولين من حزب البعث، ومع بزوغ تيار الإخوان المسلمين وقيامهم ببعض العمليات المسلحة، تم تضييق الخناق على المدينة في ما يشبه الحصار الخانق. في أثناء كل ذلك التضييق والحصار كان هم الأم الوحيد تزويج البنات الخمس، وهي فكرة رئيسة مضفورة ببراعة في النص من أوله إلى آخره. فالأب قام بتشجيع بناته على الدراسة، في حين كانت الأم تحلم بزواجهن. وقد أدى الحصار المضروب على المدينة إلى انخفاض معدلات الزواج، فالشباب إما يهاجر أو يعتقل، وما من فرص لإنشاء علاقات اجتماعية.

لكن الأهم أيضا هو وعي الأم أن بناتها لسن «شقراوات» وهو ما يذكرنا مرة أخرى بمقومات الجمال المتوقع من المرأة، والتي تحولت إلى أسهم في سوق الزواج، ويضع التعليم في مواجهة الزواج. بالخوض في هذه المنطقة– الزواج – تنجح الكاتبة في كشف البنية المعقدة للعلاقات الاجتماعية في مدينة يعرف سكانها بعضهم البعض.

وتتحول النساء إلى الفاعل الرئيس في هذا الموضوع، فهن اللواتي يعدن إنتاج كافة قيم القمع والقهر بقناعة كاملة لا تخلو من الازدواجية في السلوك والمشاعر. تبدو فداء وهي الشخصية الأكثر اتساقا مع نفسها، إذ أكملت دراستها في حلب، وعملت هناك كطبيبة، لكنها في لحظة لم تتمكن من إكمال مسيرة الاتساق حتى النهاية، كانت البنية الاجتماعية والسياسية أقوى منها، وكان عليها التخلص من هذا العبء النفسي.

برعت منهل السراج في وصف إبادة المدينة في العام ٨٢، فهي لم تلجأ للوصف البصري، وتركت ذلك لحين عودة الأم من حلب لتجد أنها غير قادرة على التعرف على الطريق داخل المدينة، لحظة خاطفة لكنها معبرة عن شكل ما كان يسمى مدينة.

استعاضت الكاتبة عن وصف المشهد تفصيلا بتصوير الإحساس بالرعب والخوف ثم الأثر النفسي للشعور بالمهانة والإذلال المستمر. فبداية تم اعتقال مخلص لأن صهره– غالب– ينتمي لتيار الإخوان المسلح، وكانت هذه بداية نهايته حيث قضى التعذيب على آخر آدميته، ثم حاول بعض الضباط التهجم على البنات في البيت فأفلتن بحيلة بديهية، ثم بدأت الأسرة في الانهيار التام.

قبلت فداء أول زوج يتقدم لها بالرغم من عدم احترامه لها وقيامه بضربها فيما بعد، وهاجر أيمن– الأخواني الميول– إلى السعودية ومن ثم لحق به مخلص مع زوجته، غادرت غادة حماة والتحقت بالجامعة في حلب، ولحقت بها أخواتها بعد أن أدركت الأم أن حماة لم تعد صالحة للسكنى.

في بحثها المحموم عن التميز والشعور بإنسانيتها تقربت غادة بمنتهى البؤس من مجموعة يسارية فاستدعيت لفرع الأمن وطلب منها كتابة تقارير. كانت النتيجة أنها انتحرت لأنها لم تستطع قبول شعورها بالمهانة أمام الضابط، والتي أضيفت إلى شعورها بالمهانة منذ الصغر. غادر مخلص وزوجته السعودية وتوجها إلى لندن حيث يقيم غالب شقيق زوجته، وانتهى به الأمر مدمنا على الكحول في معسكر اللجوء.

تحمل ربيع صامتا ضرب ضابط له في الشارع ولم ينبس بكلمة واحدة وتحول إلى تكديس المال بشراهة ليجد لنفسه مكاناً في منظومة القهر، أما لينا فقد اختارت حياة بورجوازية كاملة بداية من حفل الزفاف الذي حلمت به وانتهاء بالخادمة الاندونيسية. تخلت الأم عن تعصبها الديني قليلا بعد أن غادرت الشيخة أم صالح حماة دون أن تخبر أحدا مما جعل الأم تشعر بالخديعة، وبقيت أم غالب بمفردها تصارع الوحدة حتى استدعاها ابنها لزيارته في لندن.

لم ترحّ أم غالب هناك إلا عندما التقت بالأخوات المسلمات اللواتي كن يروجن لمشروعية سرقة الكفار، فانتهى الأمر بأم غالب وهي متلبسة بسرقة في سوبر ماركت، وبالرغم من صغر حجم هذه الحادثة مقارنة بالحدث الرئيس في حماة إلا أن القارئ لا يملك سوى التعاطف الكامل مع أم غالب، التي عادت إلى حماة، وظلت تبكي بقية عمرها لانطباع مشهد صفعة الضابط التي هبطت على وجهها، ومشهد القبض عليها متلبسة بالسرقة.

تفرد الكاتبة الجزء الأخير من العمل لحياة فداء مع زوجها في ستوكهولم. فبكل القهر الذي تعيشه مع زوج بخيل وانتهازي ترزق بطفلها الأول ويأتيها خبر وفاة والدها. تبدو أطياف ارتباك أم غالب في لندن وهى تعاود الظهور في ارتباك فداء تجاه المجتمع السويدي، وعندما يصل القهر إلى الذروة تقرر أن تبدأ حياتها بعيدا عن زوجها بالرغم من القهر المضاعف الذي يجعلها عاجزة عن العودة إلى سوريا لأنها مطلوبة أمنيا. ففي احدي الليالي تلقت رسالة على الانترنت من شخص يقص كل أحداث حماة ويطلب من متلقي الرسالة أن يعاودوا إرسالها، فكان أن كبست فداء زرا واحدا لتصبح مطلوبة من قبل الأمن. هكذا يظل القهر يلاحقها حتى في أقصى الشمال. وإذا كانت الرواية قد افتتحت بغادة الكارهة لصورتها منذ الصغر، وتراكم هذا الكره والرفض حتى وصل إلى انتحار، فإن الرواية تختتم بفداء المقهورة من غربة وزواج مؤلم وأخيرا إلى نفى إجباري عبر كبسة زر

على الكمبيوتر.

بتتبع أسباب النهاية التي وصل لها كل فرد من العائلة يتضح أن السياسي كانت له الهيمنة الكاملة على الشخصي، إنها الفاشية السياسية التي تفرز نظما اجتماعية مشابهة لها ودالة عليها، فالفرد إما مقهور أو مكسور أو مهزوم أو لا مبالي أو هارب من الواقع.

لم تحتج إذا منهل السراج أن تسرد السياسي بشكل مستقل، بل كان الشخصي والخاص هو طريقها لسرد العام والمسكوت عنه، وهو ما يجعل السياسي أشد وطأة. سردت الكاتبة الشخصي من وجهة نظر النساء، وبلغة تتحسس طريقها في وسط الدم والقتل والدمار، أما الرجال فظهروا مهزومين في مواجهة نظام حوّل الاهانة إلى أمضى سلاح.

كما أفلتت الكاتبة من الفخ الروائي الذي يغري أي كاتب وهو إعادة كتابة التاريخ وسرد الوقائع، فكتبت عن الأشخاص والإخوة وأبناء العم والجيران في مدينة صغيرة تفتت أوصالها لأنها وقعت بين شقي الرحى الفاشي: نظام بعثي مستبد وإيديولوجيا دينية شكلانية. كتبت منهل السراج عن الإنسان المكسور في الداخل والذي لم تكن الغربة– على اتساعها– أقل كسرا له. تتضاعف الغربة ويبقى الجسد في النهاية، وهو يحاول التوحد مع ذاته، يحاول تحديد نقطة يرتكز عليها: «رجعت إلى سكنها، ورمت نفسها في السرير وتلحفت بكل أغطية البيت، علّها تدفأ، علّها تنام» (٣٤٢).

شيرين أبو النجا